لقاء أخير ...

بقلم اللفة الادلبي

هكذا ، والرزايا تنشب مخالبها فينا ، حتى لكان كل خلية من خلايانا جرح ينزف الدم ، عين تنضح الدمع ، كبد تشوى ، صدر يختزن الحقد والتصميم على الثار .

هكذا ، .. في غمرة المحن المتلاحقة تموت صديقة حبيبة غالية!.. واديبة مناضلة ! .. تموت سميرة عزام ! .. بنت فلسطين البارة ، وكبرى كاتباتها ورائدة من رائدات القصة في ادبنا النسوي !..

لكان المحن لا ترتوي منا ! ...

تموت سميرة ، ونحن احوج ما نكون الى قلمها الشهم الذي ما خط الا الحرف المشرق ، والكلمة المثناف ، قلمها الحر ، الذي ما عرف الزلفى ، ولا المداجاة . منذ خط على الورق حتى كتب الجملة الانيقة المترفة ، ظل مترفعا ، أبيا ، أمينا على رسالة الادب ، ملتزما هدفها الاسمى ، فما انتهك شرف كلمة ولا امتهن حرمة حرف .

وكما اغتيلت ارضنا العربية غدرا ، اغتالت المنون سميرة غدرا!.. اغتالتها وهي في طريقها الى الاردن . راحت الى هناك لتاسو جرحا ، لتواسي نازحا ، لتهدهد مجنونا افقده عنف الصدمة صوابه ، لتوقد الحماسة في صدر صبية موتورة يكاد فتور اليأس يتسرب اليه . لتتنسم اخبار الارض المستباحة ، عسى متسللا من عكا ، وطنها الام ، يحمل اليها خبرا تصوغه قصة بطولة ترويها الاجيال ، وتثبوا مكانتها الى جانب قصة (خبز الفداء) وقصة (برك سليمان) وقصة (لانه يحبهم) الى آخر ما ابدع قلمها المطواع من قصص رائعة في ادب النكبة.

ان انس لا انسى آخر لقاءة لنا على ساحل المتوسط ، واحدة من تلك اللقاءات التي كان ينسرق فيها منا الزمن ولما نحك ما عندنا بعد. تصمت سميرة لحظة وهي ترسل طرفها الى المدى البعيد ، ثم ترده الي ، وفي عينيها السوداوين الذكيتين الق من ندى دمعة ، وتحدق الى وجهي ثم تقول جادة :

ـ ذات يوم ستفاجئين بنعيي ! ...

ذهلت ورحت اتفرس في وجهها مشدوهة ، وهي ماثلة امامي صبية تفور فيها العافية .. وتتابع قولها : انها الحقيقة ! .. لان قلبي اضعف من ان يحتملني ، فانا لا اترفق به ، دائما احمله اكثر من مستطاعه.. ستاسفين علي يا الفة ! ... لا كصديقة فحسب ، بل كرفيقة حرف لم يتح لها قصر العمر ان تعطي جل ما لديها .

ويعتريني خوف كبير من كلامها ، فيرتج علي لحظة ثم اجدني اطمئن نفسي : انها احدى نوبات التشاؤم التي تطغى عليها احيانا فاقول لها : قال الله ولا قالك ! ... الم تجدي لي عندك في هذه الامسية الحلوة وقبل ان نفترق خيرا من هذا المزاح ؟ ...

وتشيع على محياها ابتسامة ساخرة مشوبة بالم ثم تقول : اعرف انني قاسية احيانا . ولكن لن اقولها ان لم اقلها لصديقاتي ؟ ثقي انني لولا امي لما خشيت الموت ابدا ، انا شجاعة ... لا اخشى شيئا سوى المرض ، لانني ارفض ان اعيش اسيرة طبيبي ودوائي ، احب ان اموت وغبار الدرب على قدمي . تعب كلها الحياة وقد اصبحت قرفا .

وما اشتهي سوى ان يمهلني الموت حتى انشر روايتي (سيناء بلا حدود) . لقد بذلت فيها جهدا حتى رضيت عنها .

الا ترين انني قد وفقت بالعنوان ؟ . لقد تاه اليهود في سيناء ، ولسيناء حدودها . اما نحن ابناء فلسطين فقد شردنا في انحاء العالم حيث لا حدود ! ...

ونفترق ... وانا اود الا نفترق ، لاني شعرت بهلع كبير عليها ، كاني اوجست انه آخر لقاء لنا ! ..

وهكذا كان ! ...

طوبى لاديب يموت وهو في قمة مجده . ولكل قمته ، والقمم تتفاوت علوا ، وصعوبة مرتقى . هناك الذرى الشامخة ، وهناك التلال المتواضعة ، حسب ما اودع فينا الخلاق من طاقة . ويا حسرة على من ينحدر من قمته ليموت على السفح .

واللوعة كل اللوعة على من يموت وهو يصعد المرتقى الصعب الى الذروة الشامخة ، يصعد والخطى ثابتة ، والنفس مليئة بالطموح نحو الاكمل والاجمل .

هكذا ماتت سميرة وهي تصعد ! ... هكذا هوى النجم ! ... هكذا انطفأت الشعلة في عز الصبا وموسم العطاء فيا للوعتنا عليها..

والذي يقهرني ، ويحز في نفسي ، ان اديبتنا الغالية لم تجمع مقالاتها ، وكثيرا من قصصها المبعثرة في الصحف ، واحاديثها،وخواطرها الاذاعية في كتب ، لو وجدت لكانت لبنات مشرقات في بناء أدب المرأة عندنا ، وكان لدى سميرة منها عشرات المئات ذهبت هباء على الاثير ، وكانت كلها من الادب الرفيع البناء لم نجن من ثمارها سوى رواية طويلة لم تنشر بعد هي (سيناء بلا حدود) وبعض الروايات والقصص والكتب الادبية المترجمة عن الانكليزية بلغة عربية رصينة متينة ، واربع مجموعات قصصية لكم هي غالية علينا تلك القصص يا سميرة ، انها الذكريات الحية التي نراك ماثلة فيها ، وراء كل حرف ، بين كل فاصلة ونقطة . لقد اضفيت عليها من انسانيتك الشاملة ، وغلفتها بشاعريتك المرهفة ، التي كانت تنبثق عن المواقف الشاعرية ، لا عن الكلمات المزوقة ، والجمل المتكلفة ، فجاء اسلوبك كما انت تماما رصينا ، متزنا ، انيقا بلا كلفة ، خاليا من الحشو والتوافه ، يعبر عن صدق المعاناة لكل ما تكتبين ، وينساب في سلاسة كانت تستهوينا منذ المبادرة الاولى حتى آخر كلمة . وفي سطور قليلة كنت تحملينا الى الاجواء التي تريدين مهما تعددت الوانها ومنذ باكورة نتاجك استطعت ان تكوني لادبك طابعا خاصا يميزه عن غيره . فاذا انت ذات مستقلة منذ كنت برعما في دنيا الادب ، ولان بدوت عنيفة في بعض المواقف لا سيما في خواتيم قصصك فما هي الا شيمة الابي حين تمس كرامته . في مطلع صباك رايت وطنك يغتصب ابشع اغتصاب عرفه التاريخ ، فذقت من جراء ذلك مرارة الشرد ، ولوعة الاغتراب ، وكان لذلك كله تاثير عميق في نفسك فانعكس صورا حية عنيفة في قصصك .

يا أعز صديقة ! .. لقد تركت في قلبي جرحا لا يندمل ! ...

لكم احب الا انتهي من الحديث عنك وعن ادبك ، ومزاياك ، ولكم تمنيت والله لو انك وقفت مني موقفي منك اليوم ، فانت أقدر مني على ايفاء كل ذي حق حقه ، وهذا ما عجزت عنه الآن .

ان مصابنا بك فادح ، وخسارتنا لا تعوض ، ومن يملأ فراغك الكبير؟

حين اكتمل نضجك ، وبدا فيض عطائك الثر ، جاء الموت فاستلك منا في غدر لئيم قبل ان تحصد مواسمك الخيرة الواعدة .

لئن غبت يا سميرة عن الاحداق فستظلين دمعة في مآقينا ، ومضة في اذهاننا ، صورة حلوة محفورة في قلوبنا نحن اصدقاءك ، وقراءك ، وانه لبعض من وفاء اصيل عرفناه بك .

دمشق — الفة الادلبي